المبحث الثالث عشر

طهارة القلب من المعاصى

طهارة القلب من المعاصى

قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ۖ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ۖ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ۖ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:٤٣].

أي: لقد أذهب الله تعالى ما في صدور أهل الجنة من حقد وضغائن، ومن كمال نعيمهم أن الأنهار تجري في الجنة من تحتهم، وقال أهل الجنة حين دخلوها: الحمد لله الذي وفَّقنا للعمل الصالح، الذي أكسبنا ما نحن فيه من النعيم، وما كنا لنوفَّق إلى سلوك الطريق المستقيم، لولا أَنْ هدانا الله سبحانه لسلوك هذا الطريق، ووفَّقنا للثبات عليه، لقد جاءت رسل ربنا بالحق من الإخبار بوعد أهل طاعته، ووعيد أهل معصيته، ونُودوا تهنئة لهم وإكرامًا: أن تلكم الجنة، أورثكم الله إياها برحمته، وبما قدَّمتموه من الإيمان والعمل الصالح.

أي: وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله إن الله لطيف خبير، ما هذا العلم الكبير!

كنا قد توقفنا عند قوله تعالى:﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣].

كانت الجاهلية الأولى قبل سيدنا محمد ﷺ أي: أن هناك جاهليات كثيرة ستأتى بعد سيدنا محمد ﷺ، ومن المحتمل أن نكون الآن نعيش في الجاهلية

الخامسة أو السادسة والله أعلم، ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ...﴾ [الأحزاب:٣٣].

هذه آية عظيمة من آيات القرآن الكريم، لأن الصلاة هي عمود الإسلام، وهي قلب وميزان الإسلام، والذي يأتي بخاطرنا أن الله ﷻ عندما يخاطب نساء النبي ﷺ، وعندما يخاطب نساء المؤمنات: ﴿... وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ...﴾ [الأحزاب: ٣٣].

الذي يأتي في أذهاننا أن الصلاة تأتي أولًا، ولكن القرآن الكريم قال خلاف هذا تمامًا، وأن الله تعالى قدم الحجاب، وجعل الحجاب أولًا، وجعل الستر والعفاف، والعفة والحشمة أولًا، وعندما تحافظ المرأة المسلمة على عفتها، وبدنها وتصون نفسها وعرضها، فإنها تمنع نفسها من المعاصي، وتمنع الناس من المعاصي من خلالها حتى لا تكون المرأة المسلمة جسرًا إلى جهنم، لا تخرج بصورة مهينة لها، فلا بد لها أن تصون ما أعطى الله تعالى لها.

المرأة المسلمة ليست سلعة تعرض عليها الملابس والأزياء، وإن عروض الأزياء وإن جاز هذا الكلام فلا ينبغي فعل هذا في المجتمعات الإسلامية؛ هذه أشياء من صناعة الشيطان، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١١٩].

أي: ولأصرفَنَّ مَن تبعني منهم عن الحق، ولأعِدَنَّهم بالأماني الكاذبة، ولأدعونَّهم إلى تقطيع آذان الأنعام وتشقيقها لما أزينه لهم من الباطل، ولأدعونَّهم إلى تغيير خلق الله في الفطرة، وهيئة ما عليه الخلق، ومن يستجب للشيطان، ويتخذه ناصرًا له من دون الله القوي العزيز، فقد هلك هلاكًا بيِّنًا.

فالشيطان هو الذى يقيم حفلات ملكات الجمال، لماذا قدم الحجاب على الصلاة؟ فبعد أن أفسدت الشباب، وأضلت كثيرًا على وزرها، فماذا تفعل لها صلاتها بعد أن أصبحت جسرًا إلى جهنم، وماتت على هذه الحالة؟ المرأة تبدأ بالحجاب ثم الخمار ثم النقاب، ذلك حسن يقين بما عند الله ﷻ، وعندما تصلى، وهى على هذه الحال تكون الصلاة لها معنى ثان، وجمال ثانٍ وبريق؛ لأنها لا تفتن الناس بالنهار وتصلى ليلاً.

البنات المنقبات عندما يشاهدن المتبرجات، فإن الشيطان يقول لهن: شاهدن الجمال، ليفتن المحجبات، ويقول لها: اعملي مثلها إنها صناعة الشيطان، ﴿وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا﴾ [النساء:١١٩].

كيف يعقب الملك، وينظم هذه الأحكام، هذا الترتيب الجميل؟ فقال: إنما يريد الله، أي الذي أراد لك الحجاب هو الله تعالى ﷻ، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ [الأحزاب:٣٣].

هذه هى التنقية، إذن التزام المرأة بالحجاب بداية النقاء، حبها للصلاة ارتقاء الإيمان، وحبها للزكاة ارتقاء الإيمان، بعد هذا تكتمل، وتعيش فى طاعة الله، لكن الشيطان يأمركم بالفحشاء، كما جاء في قوله تعالى: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾[البقرة:٢٦٨].

هذا البخل، واختيار الردئ للصدقة من الشيطان الذي يخوفكم الفقر، ويغريكم بالبخل، ويأمركم بالمعاصي، ومخالفة الله تعالى، والله ﷻ يعدكم على إنفاقكم غفرانًا لذنوبكم، ورزقًا واسعًا، والله واسع الفضل، عليم بالأعمال والنيَّات، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ [الأحزاب:٣٣].

أي: شبهة المعاصي لا تأتي إلى قلب نساء النبي ﷺ أبدًا، وممكن تكون عامة لكل المؤمنات، هذه أحكام عامة لكل النساء:

أولًا: لنساء النبي ﷺ.

ثانيًا: النساء المؤمنات.

يأتي النقاء؛ لأن الله ﷻ يساعدنا على عدم الوقوع في الفاحشة، القلب لا يأتي له أي خاطرة للمعاصي أبدًا، والله ﷻ طهر نساء النبي تطهيرًا.

إن الله تعالى يذكر ويطهر كل مَن يحب النبي ﷺ وآل بيت النبي ﷺ، أن المسلمة يجب أن تقتدي بالسيدة عائشة رضي الله عنها، ومن تشبه بالكرام فهو معهم، ومن تشبه بأهل الصلاح فهو معهم، ومن تشبه بأهل الصدق حُشِرَ معهم .

كذلك المرأة المسلمة يجب عليها التشبه بنساء النبي ﷺ اللاتي أذهب الله تعالى عنهن الرجس، لا تأتى أى خاطرة فيها معصية إلى قلوب نساء النبي ﷺ؛ وجاء في قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم:٤].

أي: إن ترجعا (حفصة وعائشة) إلى الله، فقد وُجد منكما ما يوجب التوبة؛ حيث مالت قلوبكما إلى محبة ما كرهه رسول الله ﷺ، من إفشاء سرِّه، وإن تتعاونا عليه بما يسوءه، فإن الله وليه وناصره، وجبريل وصالح المؤمنين، والملائكة بعد نصرة الله أعوان له، ونصراء على مَن يؤذيه ويعاديه.

والملائكة بعد ذلك ظهير، وأن هناك مخالفة أو عصيانًا لرسول الله ﷺ فإن الله هو مولاه، ما هذه العصمة ﷻ أو ليس الله كافيًا ؟ بلى، كافٍ ﷻ وكفى بالله وكيلا، وكفى بالله شهيدًا، الله مولاه وماذا بعد؟ وجبريل يأتي السند والنصر لك يا رسول الله من الله، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣].

فكيف يكون حال قلب النبي من النقاء؟ كيف يستطيع المسلم أن يتطهر بصورة عامة؟ من أراد من أن يتطهر، الذى ليس من نساء وأصحاب النبي ﷺ لا يحزن، لا يقل: أين نحن من هذه الآية؟! لا تحزن؛ فإن الله تعالى هو الذي يطهرك إلى أن تقوم الساعة كل " أمة " محمدية تطهر إلى أن تقوم الساعة.

إذن لابد من طهارة الباطن، والظاهر، والأساس فى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠].

أي: الذين جاءوا من المؤمنين من بعد الأنصار، والمهاجرين الأولين يقولون: ربنا اغفر لنا ذنوبنا، واغفر لإخواننا في الدين الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا حسدًا وحقدًا لأحد من أهل الإيمان، ربنا إنك رءوف بعبادك، رحيم بهم.

وفي الآية دلالة على أنه ينبغي للمسلم أن يذكر سلفه بخير، ويدعو لهم، وأن يحب صحابة رسول الله ﷺ، ويذكرهم بخير، ويرضى عنهم، هذه طهارة الباطن .

إن طهارة الظاهر لا تغنى شيئًا عن طهارة الباطن؛ لأنها هي الأساس وما تعملون من عمل إلا كنا عليه شهودًا كما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ [يونس:٦١].

أي: وما تكون أيها الرسول في أمر مِن أمورك، وما تتلو من كتاب الله من آيات، وما يعمل أحد من هذه الأمة عملًا من خيرٍ أو شرٍّ إلا كنَّا

عليكم شهودًا مُطَّلِعين عليه؛ إذ تأخذون في ذلك، وتعملونه، فنحفظه عليكم ونجزيكم به، وما يغيب عن علم ربك أيها الرسول من شيء صغير في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر الأشياء ولا أكبرها، إلا في كتاب عند الله واضح جلي، أحاط به علمه وجرى به قلمه.

اللهم صلِّ على محمد عبدك ورسولك في الأولين، وصلِّ على محمد في الآخرين، وصلِّ على محمد في الملأ الأعلى، وصلِّ على محمد في المرسلين، اللهم أعط محمد الوسيلة، والشرف والفضيلة والدرجة الكبيرة، اللهم صلِّ على محمد وآل محمد، وقنعنا بما رزقتنا، وبارك لنا فيما أتيتنا، واحفظنا في غيبتنا، اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، وابعثنا على الإيمان بك، والتصديق برسولك، اللهم صلِّ على محمد وآل محمد، اللهم إنا نسألك خير الخير رضوانك والجنة، ونعوذ بك من شر الشر، ومن كل مكروه، ومن كل مصيبة، ومن كل آفة نزلت أو تنزل من السماء إلى الأرض، واقسم اللهم لنا من كل سرور، ومن كل بهجة، ومن كل استقامة، ومن كل فرج، ومن كل عافية، ومن كل سلامة، ومن كل كرامة، ومن كل رزق واسع، طيب حلال، ومن كل نعمة، ومن كل سعة، نزلت أو تنزل من السماء إلى الأرض.

اللهم اجعلنا من أوليائك المتقين، وحزبك المفلحين، وعبادك الصالحين، اللهم وصلِّ على محمد عدد ما خلقته على جديد أرضك في مستقرّ الأراضين شرقها وغربها، وسهلها، وجبالها وأوديتها وطرقها وعامرها، وغامرها،

وعلى آله وصحبه وسلم.

****